

سرّ □ تعالى في ليلة القدر



(إِنزَالًا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ) (سورة القدر). إِنَّ التَّدْقِيقَ فِي الآيَاتِ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْ نَزُولِ الْقُرْآنِ، يُوحِي بِأَنَّهَا مِنْ لَيَالِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) (البقرة/ 185)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنزَالًا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * مَبَارَكَةٌ إِنزَالًا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنزَالًا كُنَّا مُرْسِلِينَ) (الدخان/ 3-5)، فَإِنَّ الظَّاهِرَ مِنْهَا - بِالمُقَارَنَةِ مَعَ سُورَةِ الْقَدْرِ - أَنَّ المَرَادَ بِهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ. وَقَدْ اختلفت الأحاديث في تحديدها، ولعلَّ المشهور أَنَّهَا لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)، فَهِيَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ □ فليس شأنها مما يمكن للإنسان أن يدركه بنفسه، لأنَّ ذلك سرٌّ □ في الزمان، كما هو سرُّه في المكان وفي الأشخاص، فهو الخالق للوجود كلاًه، بكلِّ أنواعه، وهو الذي يمنح هذا بعضاً من الخصوصية التي تجعل منه "شيئاً مذكوراً"، ويمنح

ذاك بعضاً من الأسرار التي تجعله شيئاً عظيماً، لأنّ الذي يخلق الوجود هو القادر على أن يمنحه قيمته. وهكذا جعل الله لهذه الليلة قيمتها الروحية: (لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)، وقد لا يكون هذا الرقم تحديداً في الكم، فربما كان تقريباً للنوع في الدرجة التي يتصاعل أمامها كلّ زمنٍ من هذه الأزمنة التي لا تحمل إلا الذرات الزمنية المجرّدة.

وهل أخذت شرفها من إنزال القرآن فيها، أم أنّ شرفها سابقٌ عليه؟ الظاهر الثاني، لأنّ الله يقول: (إِنزِيلَهُ أَنْزَلَ نَزْلَهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ) (الدخان/ 3)، فهي مباركةٌ في ذاتها. وربما كان نزول القرآن فيها على أساس أنّه من الأمر الإلهي الذي يتنزل به الملائكة. وأيُّ أمرٍ أعظم من القرآن الذي هو النور والهدى للبشرية من خلال اللطف الإلهي الذي يصل الأرض بالسماء، ويدفع بالحياة إلى السير على الخطّة الإلهية الحكيمة في الفكر والمنهج والشريعة والمفهوم الكامل الشامل للحياة، الذي يفتح للإنسان أكثر من نافذةٍ على الروح القادم من عند الله، ليزداد - بذلك - ارتفاعاً في السماوات الروحية العليا في رحاب الله؟!.

(تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ)، وهذا هو سرّ الليلة الذي تتنزّل به الملائكة، الذين يوكل الله إليهم المهمّات المتعلقة بالكون الأرضي المتصل بالإنسان من كلّ أمرٍ يهمّه أو يتعلّق بشؤونه، في رزقه، وحركته وعمره، ونحو ذلك. كما يتنزّل به الروح الذي قد يكون المراد به جبريل (ع)، الذي امتاز عن الملائكة بأنّه الرسول الذي يحمل الوحي للأنبياء ليبلّغوه للناس، وقد يكون المراد به الخلق العظيم الذي يتميّز بقدرته خاصّةٍ غامضةٍ، أو بطبيعة مختلفةٍ عن طبيعة الملائكة. ومهما كان، مما يمكن للإنسان فهم معناه، وبلوغ مداه، أو مما لا يمكن له الوصول إلى ذلك، فإنّ الآية توحى بأنّ هناك سرّاً ربّانياً يثيره الله في هذه الليلة في الكون الإنساني، من خلال رحمته التي يرحم بها عباده، ولطفه الذي يلطف به في حياتهم العامّة أو الخاصّة.